1. الهجاء:

وإذا تركنا المديح إلى الهجاءِ وجدنا معالم التطورِ فيهِ أعمقٌ وأوسَع منها في المديح الخالص، إذ أن الهجاء يتصل بحياة الشعب والعامة اتصالاً أدقَّ من اتصال المديح، وقد عمَّت فيه روحٌ جديدةٌ فأصحابُهُ لم يتركوا مثلَبَةً خُلُقيةً أو نفسيةً في شخصٍ إلا صوروها. فالمديح يرسم المثالية الخُلُقيةِ للتربية السليمة والهجاءُ يرسم المساوئ الفردية والاجتماعية التي ينبغي أن يتخلص منها المجتمع، وقد تبارَى الشعراء في رسمِ معانيه، ومن ذلك قول بشار بن بُرد في هجاء ابن قَزعة لبُخلِهِ الشديد:

فلا تبخَل بُخْلَ ابن قَزعةَ إنَّهُ مخافَةَ أن يُرجى نَداهُ حزينُ

إذا جِئتَهُ للعُرفِ أغْلَقَ بابَهُ فلم تَلْقَه إلا وأنتَ كمينُ

وما حدث بين حمّاد عَجْرَد وبشار بن بُرْد من الاستخفافِ والتهوينِ والتحقير حينَ استطارَ بينهما الهجاء، فقال حماد:

وأعمىً يُشْبهُ القِرْدَ إذا ما عميَ القردُ

دَنيءٌ لَمْ يَرُح يوماً إلى مجدٍ ولَمْ يَغْدُ

ويُقالُ إن بشاراً حين سمِعَ هذهِ الابيات بكى من شِدّةِ إيلامها لنفسِهِ، فقالَ له قائل: أتبكي من هجاءِ حماد؟ فقال:**واللهِ ما أبكي من هجائِهِ، ولكن أبكي لأنهُ يراني ولا أراه، فيصِفُني ولا أصِفُه**، وأتاهُ من بابٍ جديدٍ ألهمتْهُ بهِ الحضارةُ، فوصَفَهُ بالقذارة والدَّنَسِ في أبياتٍ أشدُّ إيلاماً وأوجَعُ وخزاً لِنفسِهِ من الابيات السابقة، إذ يقول:

نهارُهُ أخبَثُ من ليلِهِ ويومُهُ أخبث من أمسِهِ

2. الرثاء:

نشَطَ الشعراءُ في الرثاءِ نشاطاً واسعاً، إذ لم يمت خليفة ولا وزير ولاقائد مشهور إلا وأبَّنوهُ تأبيناً رائعاً، وأوضح ما في هذه الاشعار من دقةِ التفكير وبعدِ الخيال، إذ كانوا يتنافسون في استنباط المعاني النادرة، ومن طريف هذه المعاني ما لمسلم ابن الوليد من قولهِ في رثاءِ شخص:

أرادوا لِيُخْفوا قبرَه عن عدوه فطِيبُ تُرابِ القبرِ دلَّ على القَبرِ

وكان الشاعر القديم يرى أن الموت كأسٌ دائرٌ يتجرَّع غصصهُ جميع الناس، فردّد ذلك الشاعر العباسي في مراثيهِ، وأخذَ يُضيفُ إليهِ من فكرهِ الخصب تأملاتٍ في حقائق الموت وسنن الوجود، من مثل قول ابن مناذر في الموت:

كلُّ حيٍّ لاقى الحِمام فَمودِى مالِحَيٍّ مُؤَمَّلٌ من خلودِ

وشاع في العصر العباسي بكاءَ الرفقاءِ والاصدقاء، من مثل قول بشار في ندبِ أحدَ أصدقائه من الزنادقة:

اشربْ على تَلفِ الأحبةِ إننا جُزُرُ المنيةِ ظاعنينَ وخُفَّضَا

وكان إخوتهم وأبناؤهم يموتون تحت أعينهم ويبكون بدموعٍ غِزار بأبياتٍ تصور الحزنَ المقيم في قلوبهم، من مثلِ قولِ العُتْبيّ في ابنٍ لهُ اختطفَهُ الموتُ وهو في ريعانِ شبابهِ:

وقاسَمَني دهري بَنِيَّ بِشَطرِهِ فلمّا تقَضَّى شَطرهُ عاثَ في شَطرِي

وعلى نحوِ ما تفجَّعوا على أبنائهم وإخوتهم تفجَّعوا على زوجاتهم تفجُّعاً كله عطفٌ ورحمة، ولابن الزيّات مراثٍ مختلفةٍ لزوجته تمثل أحزانه وحزنَ طفلِهِ الذي فقد عطفَ الأمّ وحنانها، من مثلِ قولِه:

ألا من رأى الطفلَ المفارقَ أُمَّهُ بُعَيْدَ الكَرَى عيناهُ تبتدِرانِ

وظلّت المآتم قائمةً على قتلى الشيعةِ في العصرِ العباسي والعصور السابقةِ منذ قتلِ عليٍ بنُ ابي طالب، فهم ينوحونَ عليهِم نواحاً حاراً، وبكى الشعراء البرامكةَ طويلاً حينَ نكبَهُم الرشيدُ، من مثلِ قولِ سَلْمِ الخاسِر:

خَوَتْ أَنجُم الجَدوَى وشلَّتْ يَدُ النَّدَى وغاضَت بِحارُ الجُّودِ بعدَ البرامِكِ

وظهرت ضروبٌ جديدةٌ في الرثاءِ لم تكن معروفةً قبل هذا العصر، من ذلك رثاء المدن حين تنزل بها كوارث النهبِ والحرق، وكان الجيش الذي أحاطَ ببغدادَ قبل مقتلِ الأمين رماها بالمجانيق فاندلعت فيها النيران واحترقت بعض الاحياء، وعمَّ فيها نهبُ الأموال وقتل الأبرياء، مما جعلَ كثيرين من الشعراء يبكونها وقد غمرهم الحزن والأسى، من مثل قول بعض الشعراء:

ألا ابْكِ لإحراقٍ وهَدمِ منازلِ وقَتلٍ وإنهاب اللُّهى والذخائرِ

ومن ضروب الرثاء الجديدة مراثي الطير الصادح من مثلِ القمريّ والحيوانات الأليفة، ويُقال إنه كان لابن الزيات فرسٌ أشهبٌ لم يُرَ مثلهُ فراهة وحسناًن فوصِفت للخليفة المعتصم فراهته فطلبهُ منه، فلم يستطع ردَّ طلبه، حتى رثاه بقصيدة يقولُ فيها:

كيفَ العزاءُ وقد مَضى لسبيلِه عنّا فودَّعنا الأَحَمُّ الأشهَبُ

لقد أكثرَ الشعراءُ في العصر العباسي من العتاب والاعتذار متخذين لهما مسالك دقيقة تدلُّ على رهافة الحسِّ وخصوبة الذهن، فتفنّنوا في صورِ اعتذاراتهم مستوحين قدراتهم العقلية في الحجاج والمنطق، من مثلِ قول إبراهيم بن سيَابَة يعتذرُ للفضل بن الربيع وكان قد سخَطَ عليهِ سَخَطاً شديداً:

إن كانَ جُرمي قد أحاطَ بحُرمَتي فأحِط بِجُرمي عَفوَكَ المأمولا

3. الغزل:

ولعلَّ الشاعر العباسي لم يُعنَ بموضوعٍ قديمٍ كما عُنيَ بالغزلِ وتصويرِ عاطفة الحبِّ الانسانية، التي كانت تخفق بأغانيها صباحَ مساء العيدانُ والطنابير والدفوف والمعازف من كل شكلٍ مختلطة بأصوات المغنيات والمغنين على جميع الايقاعات، وكادَ أن يكون لكل شاعر طائفةٌ من الجواري يحففنَ بهِ،وكان منهنَّ كثيرات يحسنَّ نظم الشعر، فكنَّ يكتبنَ أبيات الغزل المثيرة، وهنَّ الذينَ دفعنَ المجتمع العباسي في بعضِ جوانبهِ إلى الفساد الخُلُقي، إذ كنَّ يعِشنَ في بيوت النخاسة وكانت دوراً كبيرة للعبثِ واللهو ومن حولهن الذين يستهينون بكلِّ شيءٍ ومنهم من كان ينكر أصولَ الدين من أمثالِ بشار وأبي نواس، فطبيعي أن تسوء سيرتهنَّ، ذلك مما أدى إلى فتح الأبواب للغزل الإباحي الذي يتضمن الكثير من الفسوق والإثم.

وبلغَ من حدَّةِ الغزلِ أن شاعَ الغزل الشاذ بالغلمان، هذا النوع من الغزل المزري بكرامة الرجل دارَ على كثيرٍ من الألسنةِ، وأيضاً فإنه كانَ قد تُرجِمَ شيءٌ من الحب الأفلاطوني اليوناني ، كلُّ ذلك سرى في نفوس الغزلين الماجنين من العباسيين، ومضوا يضيفون إليه من خواطرهم الثرية الخصبة، من أمثالِ بشار وأبي نواس وغيرهما من المجّان قِطَعاً من الحب الافلاطوني أو أقل من الحب العفيف البرئ الذي يرتفع عن المادة والحسّ، من مثل قول بشار:

دَعا بفراقِ منْ تهوَى أبانُ ففاضَ الدَّمعُ واحترقَ الجَنَانُ

على أنه سرعان ماظهر شاعر تخصص بالغزلِ العفيف واشتهرَ بهِ هو العباس ابن الأحنف.

4. الخمر:

لقد اتسعت موجةُ المجونِ واتسَعَ معها وصفُ الخمرِ، وكانت مجالسها تُعقَدُ في البصرةِ والكوفة، حتى إذا قامت بغداد نافستهما في تلك المجالس، وكانت تتوزع حاناتها في منطقة الكرخِ وغيرها، فأمَّها جميعاً مُجَّان الشعراء هم وغيرهم من عامة الفسَّاق، وكانوا أخلاطاً، منهم : **الزنديق الثائر على الاسلام وتعاليمه، والحزين الذي لم تحقق له الدولةُ أحلامه، ومنهم المجوسي والدهري الذي لايؤمن بأي كتابٍ سماوي**، وقد مضوا جميعاً يعبُّونَ من الخمر حتى الثمالة، وتلقانا منهم منذ أوائل العصر العباسي جماعاتٍ ألَّفَ المجون والعشق والفسق الآثم بينهم مثل جماعة مطيع بن إياس ووالبة بن حُباب، وحَمَّادُ عَجرَد، ويحيى بن زياد الحارثي في الكوفة، وكانوا يعبُّونَ الخمر أرطالاً ويتغزلون الغزل المكشوف الماجن بالجواري والغزل الشاذ بالغلمان، متحررين من كل خلقٍ وعُرفٍ ودين، وفي ذلك يقول مطيع بن إياس:

اخلع عذاركَ في الهوى واشرب معتَّقةَ الدِّنانِ

وصِلِ القبيحَ مجاهراً فالعيشُ في وَصلِ القيان

وتبلغُ حدة هذه الموجة غايتها في عهدِ الأمين، إذ حوَّلَ قصرَ الخِلافةَ إلى مايُشبِه مقصفاً للخمرِ والمجون، واتخذَ أبا نواسَ نديمَهُ، وكان يعكِفُ على الخمر والمجونِ عكوفاً يقترن بهجومٍ شديدٍ على مقدمة الأطلالِ القديمة طالباً إلى الشعراء أن يضعوا مكانها وصف الخمرِ المعتَّقةِ، من مثلِ قولِهِ:

قُلْ لِمَنْ يبكي على رسمٍ دَرَسْ واقفاً ما ضرَّ لو كانَ جَلَس

اترُك الرَّبْعَ وسلمَى جانباً واصْطَبِح كرخيةً مثلَ القَبَس.

5. الزهد:

وقد انتشرَ في العصر العباسي شعرُ الزهدِ، وكانَ أكثرَ اتصالاً بحياة المجتمع من شعر الخمر والمجون؛ لأنَّ المجتمع كان يعيش حياةً دينيةً مستقيمة يشيعُ في بعضِ جوانبها النسكُ والعبادة، وقد شاع كثير من الأشعارِالتي تصور زهد هؤلاء الناسكين وانصرافهم عن متاع الدنيا الزائل، وتبِعَهم كثير من الشعراء يردِّدون نفسَ النغم، حتى شعراء المجون أنفسهم، ومن مثل ذلك قول أبي نواس:

ألا رُبَّ وجهٍ في الترابِ عتيقٌ ويارُبَّ حُسنٍ في الترابِ رقيقِ

فقل لقريب الدارِ إنَّكَ راحِلٌ إلى منزلٍ نائى المحلِّ سحيقِ